البديل

عبد السلام السيدي

من بعيد بدت الجبّانة هاجعةً وراء السور الأبيض القصير.. لوحت القبورُ من هضبةٍ مكلّلةٍ بالأعشاب المحترقة والأشجار اليابسة.. التابوت في المقدّمة يستقرّ على أكتاف الرجال.. تغطيه عباءةٌ بيضاء يُعرف منها بأنّ المتوفّى رجل.. الرجال بعباءاتهم ومعاطفهم وستراتهم. يسيرون بخطى كسولة منكّسي الرؤوس. يردّدون كلمات رتيبة ذات نغم جنائزي.. أغنياء وشحّاذون.. تجّار مواشٍ ومكّاسون.. قوّادون. ورجال شرطة.. قضاة ومخبرون.. في نفوسهم خوف من الهجعة الأخيرة تحت صفائح من الحجارة يلفّهم كفن الأبدية وصمتها.. في هذه الأثناء كانت أرواح الموتى في انتظار انصراف المشيّعين كيْ يتسنّى لها الاقتراب من الوافد الجديد الذي سيخبرهم عن أحوال عالم الكون والفسادِ الذي جاء منه.. انزوت الأرواح تحت شجرة الضريح الوارفة الظلال ترى المشيّعين من حيث لا يرونها. أرواح هائمة في الفضاء كالأثير..

قالت إحدى الأرواح وهي تشير إلى أحد المشيّعين: «انظروا إلى ذلك الرجل المتلفع بمعطفٍ أسود ثقيل. ويعتمر طاقية حمراء.. إنّه يرتعش ويبدو أكثر شحوباً..».

قالت روح امرأة: «قد يكون من أهل الميت..».

قالت روحُ الميت وهي تقترب من الأرواح: «هذا الوغد ليس بقريبي وإنّما هو مخبر حقير جاء يقتفي أثر مَنْ تخافهم الحكومة. كما أنّه يعمل في تجارة المواشي..».

قالت إحدى الأرواح بتهكّم: «ما رأيكم لو جذبته من معطفه..».

قالت روحُ عجوز: «أنت وشأنك.. لتجذبيه من معطفه أو من أذنه..».

قالت الروح المشاكسة بغبطة: «أودّ أن أضحك من هذا الرعديد..».

مضت الأرواح تحلّق في فضاء المقبرة، بينا كانت جماعة المشيّعين تغادر الجبانة. استشعر علي الفرطاس يداً غير مرئية تجذبه من معطفه الأسود الثقيل، فانتفض مذعوراً وطفق يقلّب بصره في وجوه المشيّعين المتناثرين حول القبور.. مفكّراً: «هل أنا في حلم، أم ثمّة غولة تسكن هذه المقبرة جاءت لإخافتي؟».

التفت حوله بوجل. وحدّث نفسه «علَيَّ بالانصراف من هذا المكان المسكون بأرواح الموتى..».

سلخ حذاءَهُ المعفّر بالتراب ودسّه تحت إبطه وانطلق هارباً.. ظنّ البعض أنه لصٌّ اختلس من أحدهم محفظة، أو مخبولٌ، أو به نعرة الحمير.. أما الأرواح فقد أخذت في الضحك. سمع قهقهات وتصفيقاً..

قالت الأرواحُ بسخرية: «إلى أين أنت ذاهب يا سي الفرطاس؟!».

قال بصوت مرتجف: «من أنتم.. ماذا تريدون منّي؟!» وأخذ يتلو بعض الأدعية..

قالت الأرواح: «لا تخفْ، أنت ضيفنا هذه الليلة..».

قال قرينه: «وأنا هل أبقى معه، أم أنصرف؟».

قالت روح بصوت نسائي به غنة: «اذهب أيّها القرين لتمثّل دوره مع زوجه وردة الجميلة».

مال القرين على أذن صاحبه وهمس: «لقد سمعت أنّ وردة تطالبك بإحضار بعض الحاجيات..».

قال علي الفرطاس وهو يتذكّر: «حقّاً لقد طلبت منّي أن أجلب لها قنينة طيبٍ وبعضَ الأصباغ..».

قال القرين: «أين أجد محفظة نقودك؟».

قال علي الفرطاس: «تجدها في صدرتي الزرقاء المعلّقة في صوان الملابس».

هزّ القرين رأسه وانطلق تاركاً وراءه الجبانة وصاحبَه والأرواح. وقف القرين في محطّة الحافلة لعادة لا لضرورة.. فوجد عدداً من المنتظرين.. تقدّمت منه عجوز شمطاء تتلفّع بلحاف أبيض. وأخذت تتفرّس في وجهه. وغمغمت بصوت أبح: «أأنت علي الفرطاس؟».

أجاب محتدّاً: «أجل أنا علي الفرطاس. ماذا وراءك يا جدّتي؟».

قالت بصوت باكٍ: «أنا عجوز شارفة وقدماي لم تعد تطيقان الانتظارَ الطويل في محطّات الحافلات. وأرغب في أن تبيعني حماراً..».

قال بحنق: «من قال لك إنّي تاجر حمير؟!».

أجابت: «أهالي البلدة يقولون ذلك..».

قال وهو يستعدّ لصعود الحافلة: «اسمعي يا جدّتي، أنا موظّف في الحكومة، وليس لديّ صلة بتجارة الحمير، ولو لم تكوني عجوزاً مثل جدّتي لكان لي معك شأن آخر..» ..

دلف القرين إلى منزل صاحبه.. كان

الوقت ليلاً، والأطفال نياماً، ووردة الجميلة تمشّط شعرها الأسود أمام صوان الملابس..

قالت وهي تلتفت عندما رأته يدلف الغرفة حيث كانت تنتظر: «هل جلبتَ ما أوصيتك به؟».

طفق يحكّ ذاكرته، قائلاً في نفسه: «بحق الشيطان بماذا أوصته؟!».

عادت تردّد بصوت أغنّ مصحوبٍ بطرقعات اللبان: «هل نسيت، أم ثمّة واحدة أخرى أخذتك منّي؟!».

قال القرين معتذراً: «لقد نسيت الحاجيات في دكان صاحب من أصحابي..».

قالت بسخرية: «لتذهب إلى دكّان صاحبك، ولا تعدْ إلاّ إذا جئت بالحاجيات».

ارتدى القرين معطفه الثقيل وهمّ بتقبيلها فدفعته بيدها، وتكوّمت فوق السرير واجمةً. انساب في الزقاق الذي صار مقفراً.. فكّر في الطريق الطويل الذي يفصله عن الجبانة حيث صاحبه والأرواح في انتظاره.. وقال: «الطريق طويل، علَيّ بدراجة نارية امتطيها إلى هناك..».

قلّبَ بصرَه فيما حوله. رأى أكواخ الصفيح السوداء متناثرة هنا وهناك..

وفي هذه الأثناء وقع بصره على دراجة نارية مربوطة بسلسلة معدنية إلى شجرة توت.. اقترب منها، وشرع يقلّب بصره هنا وهناك يستطلع المكان.. وبينا هو كذلك باغته نباحُ كلب شرس.. توقّف مفزوعاً، وبصق على صدره المشعر..

قال بحنق: «هذه الليلة يعاكسني الحظّ.. ماذا أفعل بهذا الكلب اللعين؟!».

اقتعد مصطبة أحد البيوت، وشرع يفكّر في طريقة يسيطر بها على الكلب..

قال في نفسه: «عليّ بابتياع زجاجة نبيذ، ورغيفاً من الخبز.. أنقع الرغيف في الخمر وأقدمه إلى الكلب. وعندما يسكر أكسر السلسلة وامتطي الدرّاجة..».

امتطى الدرّاجة وطار بها إلى المقبرة، بعد أن ازدرد الكلبُ الرغيفَ المنقوعَ في الخمر.. ولكنْ في دروب البلدة الملتوية فقد القرينُ ذاكرته. لم يعد يذكر شيئاً عن وردة الجميلة التي تنتظره، وصاحبه والأرواح.. كان متشبثاً بمقود الدرّاجة النارية ذات الصوت الأجشّ، يملأ الضبابُ عينيه.. وعندما أخذه الإعياء، توقّفَ وأسندَ الدراجة على جدار.. قرفص فوق الرصيف، واضعاً رأسه بين كفّيه، وشرع يُعْوِل.

طرابلس الغرب

نون المعنى

أديب كمال الدين

(١)

بائي باءُ الغدر ونوني نونُ المجهولْ
أتقيأ موتي منتظراً
حبراً من نور.

(٢)

لا بأس إذا ضحكتْ منّي
صاحبةُ النون وواستني
في غرفتها سرّاً
لا بأس إذا نزعتْ
سرّتها وانتبهتْ لعذاب العرجون.

(٣)

اقترحُ اليومَ لها حبّاً من طينْ
هذي النون المفتونة بالفتنة والموتْ
وأضيء لها بحراً مزدحماً بشموعٍ وأنينْ

(٤)

لا بأس فسيّدتي أحييتْ في حرفي
كلّ عذاباتي الممتدّة من حتفي حتى.....
حتفي.

(٥)

الكاف إلهي – فانتبهوا يا موتاي – الراء اسمي..
ضاع كما ضاع البحرُ على سجّادة موتي
والألف أنا: مجهولٌ في هيئة شاعرْ
وإلهٌ في هيئة مجهولْ
والباءُ حبيبة قلبي ضاعت في دائرة الحوتْ
والحاءُ أبي
والعينُ عيونٌ من جدّي
والهاءُ همُ موتاي الأحياء أخرسّوا وقت النطق وضاقوا
بالساعة، والساعة قائمة، فانتبهوا
للنون تجيء من الأقصى.
هل تحرقني النون
أم تتركني أنزفُ في السرِّ على سجادة موتي؟

(٦)

لا معنى لي إلاّ في حرفي
مرّت سنةٌ عاريةٌ من عمري، مرّتْ عشرونْ
الحرف أنا: متهمٌ بجنونِ الراءِ، صهيلِ الألف..
بكاءِ الباءِ، ربيعِ الكافِ، نزيفِ الحاءِ، صمودِ العين..
انتبهوا
إذ تسرقني النونُ إلى عريي اليومي، أضيع وأفنى
انتبهوا رأسي فوق الرمح إلهٌ يبحث عن معنى!

بغداد